الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

ملامح من الحياة الفنية فى ظل الحضارة العربية

بدر الدين أبو غازى

مستخرج من الموسم الثقافى
مجموعة المحاضرات العامة التى ألقيت بالجمعية
١٩٧٨ ــ ١٩٨٣

القاهرة ١٩٨٤

ملامح من الحيــاة الفنيــة
فى ظل الحضــارة العربيــة الاســلامية

بدر الدين أبو غازى

على امتداد الساحة التى تكون منهـا وطننا العـربى ، قامت حضارا تعظيمة كانت الفنون التشكيلية من أروع ما قدمته من عطاء .

ولقـد شكلت حضارة النيـل وحضارة الرافدين منـذ القـدم تيارا حافلاً بروائع العمـارة والفنون التشكيلية الأخرى وامتـد تأثير هـذا التيار الى مواقع اخرى من الوطن العربى فجاءت فنون فلسطين متأثرة بفنون هـذه الحضارات ، وفى سوريا ظهرت حضـارة فنيـة عظيمة فى تدمر مازالت شواهدها الطبيعية وبخاصة فى النحت تنبىء عن شأو هـذه الحضارة وقدرهـا .

وظلت شبه الجزيرة العربية التى اشرق عليهـا الاسلام حافظة اسرارهـا التشكيلية حقبة طويلة من الزمان لم نتمثل فيهـا خيالهـا انتصويرى الا فى الشعر الجاهلى الى ان ازيحت الرمال التى حجبت اثار الجـانب السعيد من شبه الجزيرة فى اليمن وعـدن وحضرموت فظهرت بقـايا قصور ومعـابد ، وتماثيـل من الحجر والالباسـتر والعقيق تمثـل شخوصا فى حركة صراعة وكذلك حيوانات وزخـارف نباتيـة اجتمعت فيها تأثرت عـدة من حضارات مختلفـة تمثلهـا سكان الارض السعيدة خلال طوافهم بالعـالم سعيا وراء التجـارة .

وما ان أخـذ الاسلام ينشر نوره على الوطن العـربى حـتى ظهر الفن الاسـلامى متميزا بسماته الخاصة حافظـا على امتـداد الوطن العربى سمات وخصائص مشتركة لا تخطئهـا العين اسهمت فى صهرهـا عبقرين الدين وتجانس الاصول .

ولقد ظهر هذا الفن مرتبطا بحياة المجتمعات مستجيبا لاحتياجاتها متسقا مع عقيدتها فكان تعبيرا صادقا عنها فى كل ما جاء به من شوامخ العمارة حتى متممات العاج وأدوات الحياة .

فى العمارة العربية يتمثل صفاء العقيدة وادراك مقتضيات المكان ويتجلى ذلك فى الربط بين الفراغ المحسوس والفراغ اللانهائى وفى دخول السماء فى تشكيل البناء عن طريق الرمز بواسطة الصحن وفى التعبير عن كنه الحياة من خلال مظاهر التباين والتجانس وتكامل الفراغات وتداخلها وفى ابتداع الحلول لمعالجة الظروف المناخية ، وتنسيق المواقع وتحقيق الارتباط بشواطىء الانهار والقنوات ، كما ظهر فى بغداد والقاهرة على سبيل المثال .

ولقد تحقق التجانس بين منطق العمارة العربية ومنطق تخطيط المدن العربية بصورة من الروعة والرواء ، هكذا كانت الفسطاط كما وصفها ابن حوقل وافاض فى ذكر روعة تخطيطها وعظمة أسواقها وفخامة متاجرها وظاهرها الانيق وبساتينها النضرة . وكذلك كانت دمشق عاصمة الامويين فى بهائها العظيم .. كما قامت بغداد عاصمة المنصور بتخطيطها الرائع وبناياتها الشاهقة وأصبحت مراكش بقصورها وحدائقها أشبه ببغداد فى الشرق كما اشبهت مدينة فاس دمشق فى روائها الفنى وطبيعتها الخلابة ومثلت القيروان القيم المعمارية فى المدن العربية على أروع صورها .

ومهما تنوعت ابتكارات العبقرية العربية فى التخطيط والعمارة فان الفن العربى كله تسوده وحدة داخلية تكمن فى شخصيته وتربط أكبر الأشياء بأصغرها برباط وثيق فلوحات قاعات الحمراء المنحوتة وصفحات القرآن المزينة وزخارف النوافذ تجمعها كلها وحدة كما يقول جورج مارسيه .

ولعل فيه اختفى من فنون الاسلام أشياء أروع من بعض

ما بقى فما زال الخيـال يحلق متمثلا قصير عمرا وما كان فى ايوانه من روائع النقوش التى تروى انتصارات الامويين ومسارح لهوهم ومناظر الصـيد والراقصـات ...

ولقـد كشفت الحفـائر فى سامراء عن روائع تصويرية قريبـة الشبه باللوحات الجدارية التى عثر عليهـا فى حى أبى السعود بالقاهرة كمـا كشف جامع المتوكل عن الصـلات بين عمـارته وعمـارة جامع ابن طولون كدليل على التبادل والاخـذ والعطاء بين فنـانى الوطن العربى فى ذلك الزمان .

واذا كان التاريخ لم يبح الا بالقليـل من خـلال اطلال الفسطاط فان ما بقى لنـا من روائع وصفهـا ينبىء عن ازدهارهـا الثقافى واحتوائهـا لابداعات من الفنـون .

كما أن التاريخ يوحى الينـا بأبهة القصور الطولونيـة وحدائقها ونقوشها اللازوردية التى ذهب بهـا الزمن ، والتماثيل المتحركة التى كانت تشغل ابهـاء تلك القصور ولكن مسجد ابن طولون ظل باقيـا بأعمـدته السامقة ومنارته وزخارفه التى تمثل نهجا عزيزا على الفنـان الاسلامى ولنـا أن نتمثـل فى الاشكال التى تعلو اسوار المسجد ملامح تماثيل تجريدية لاشخاص وكائنات تشير الى شغف بالنحت والى قدرته على ابداع أشكال رائعـة منه مضمرة فى كيـان العمـارة ، فـاذا يممنـا وجوهنـا نحو الغرب تمثلنـا مساجد الموحدين بجلال صحوتها وصفاء أقواسها وبدت لنـا هـذه المجموعة المعمارية الخلابة التى تجمع بين الوداعة والرقة كمـا بدت لنـا روعة العمارة المغربية فى المسـاجد المنتشرة فى ربوع المغرب .

لقـد كان المسجد كما كان القصر محتوى لروائع مبهرة التقت فى كليهمـا روائع الفن الاسلامى ومشخصاته ... الزخارف والخطوط

والنقوش وتشكيلات الفسيفاء وفنون الزجاج والمنحوتات الخشبية وغيرهـا وبهـذا اجتمعت فى دور العبـادة ودور السكن قيم فنية رائعــة •

على أن ارتباط الفن بالمنشآت العـامة على النحو الذى يبدو لنـا الآن عند الأوروبيين كان من مظـاهر الفنون العربيـة الاسلامية فى اتصالهـا الحميم بمجتمعاتهـا •••

ولعـل ما بقى من حديث المسعودى فى مروج الذهب عن صور العنقـاء فى الحمامات ورسوم العيد والرقص وما كشف عنه من بقـايا تدل على استخدام الصور المائية على الجص فى حمامات سامراء والقاهرة وما خلفه يوسف بن عبد الهادى فى كتابه عدة الملمات فى تعداد الحمامات من وصف لحمامات دمشق كل ذلك من دلالات عناية المجتمع العـربى بالفن وارتباطه بمظاهر حياته •

يقـابل ذلك ما حفلت به البيمارستانات من نقوش ولوحـات نحتية يكفى دليـلا على روعتهـا ما بقى منها مما كان يزين بيمارستان قلاوون فى القـاهرة • وما تنبىء عنه التواريخ من عظمة بيمارستان مراكش الذى أقيم فى عهـد الموحـدين وروعـة نقوشـه واحكام زخـارفه •

ولو أردنا السرد لضـاق بنا المجال فحسبنا هـذه الاشـارات للدلالة على ارتباط الفنون بالمجتمع الاسلامى • ان هـذا المجتمع الذى كان مشغولا ، بنظافة البـدن كما كان مشغولا بنظافة الروح استطاع أن يجمع فى الحمـام كتجسيم لهـذا المعنى روائع الفـن ولطائف ادوات الزينـة ولقـد كانت أسواق الفسطاط ودمشق وبغداد والقـاهرة عامرة بهـذه الادوات فى مجتمع يدعو الناس الى أن يأخذوا زينتهم عنـد دخول المسجد ويجعل النظـافة من الايمـان والجمـال من مطالب الحيـاة •

ولذلك كان الفن صنوا للحيـاة وكانت أدوات الزينـة ضربا من الفن ولقـد أفاض ناصر خسرو فى ذكر هـذه الروائع الفنيـة من أدوات كمـا القى عليهـا المقريزى الاضواء وبقيت لنـا منهـا دلائل على اهتمـام الفنـان العربى ببث القيمـة والمعنى فى أصغر الاشياء .

لقـد بدأ ناصر خسرو الرحـلة الى العالم الاسلامى وجاء مصر فى القرن الحـادى عشر الميـلادى فبهره رخاءها العظيم وأسواقهـا العـامرة وتحفها الفنيـة ، وقـد وصف ناصر خسرو مدينة القاهرة المعزية وصفـا رائعا تحدث عن عمارتهـا وحوانيتها ، ووقف بقصر « السلطان » كمـا كان يسمى الخلفاء الفاطميين .. شهد بناءه الشامخ وفرسان الليـل الذين يحرسونه وأسواره العـالية وبواباته العشر كما وصف أبواب القـاهرة الكبرى — باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة وباب القنطرة وباب الخليج واستحوذ على اعجاب بيوب القـاهـرة وحدائقهـا واعيادها فقال .. « لو وصفت هـذه الاعياد لمـا صدقنى كثير من النـاس ولرمونى بالمبـالغة والاغراق فان حوانيت القصابين والصيـاغ والحوانيت الاخرى مفعمة بالذهب والحلى والبضـائع والاقمشة من الحرير والقصب لدرجة لا يجـد فيها المشترى محـلا يجلس فيـه » .

ومما لفت نظره ان التجار كانوا يبيعون باثمـان محـددة وان الذى كان يغش النـاس كانوا يركبونه ويضعون فى يـده جرسا يدقه ويطوفون به فى البـلد وهـو يصيح بأعلى صوته « لقـد كـذبت وهـأنذا القى عقـابى جزا الله الكاذبين » .

مجتمع حضارى تلاقت فيه الرفاهة والفن والقيم الاخلاقيـة .. وقـد بهره من هـذا المجتمع أيضـا فنونه وصناعاته فوقف أمـام مصـانع النسيج وادهشته مهـارة النساجين الذين كانوا يشتغلون فى مصـانع الخليفـة .

كانت أروع المنسوجات تصنع فى مدينة تيس وتصدر الى القاهرة .

ووصف ناصر خسرو سوق القناديل بجوار جامع عمرو فقال انه لم يعرف مثله فى أى بلد آخر .

وأعجب ناصر خسرو بما شاهده من البللور الصخرى فى سوق القناديل وذكر أنه كان مشغولا بأسلوب فنى على أيدى صناع لهم ذوق رقيق ، وخرجت معظم تحف البلور الصخرى من مصر الى كنائس الغرب ومتاحفه لما تمثل فيها من رمز للنقاء الروحى .

وأشار ناصر خسرو الى صناعة الخزف فى العصر الفاطمى فقال أن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفة وان الخزف المصرى كان رقيقا وشفافا حتى لقد كان ميسورا أن ترى من باطن الاناء الخزفى اليد الموضوعة خلفه .

وكانت تصنع بمصر الفناجين ، والقدور والبرانى والصحون وتزين بألوان تشبه القماش المسمى بوقلمون وهى ألوان تختلف باختلاف أوضاع الانية .

وهذا الخزف ذو البريق المعدنى بهر ناصر خسرو كما أدهشه أيضا أن التجار والبقالين كانوا يستخدمون الاوانى الخزفية فيما يستخدم فيه التجار الورق فى العصر الحاضر فقد كانوا يضعون فى هذه الاوانى ما يبيعونه ويأخذها المشترون بالمجان .

هذا حديث شاهد رؤية قدم القاهرة فى عصر الفاطميين وبهرته فنونه ولكن أقدم من كتب عن الفاطميين وهو ابن ذولاق المتوفى سنة ٩٩٨ م لم يقدر لمؤلفاته أن تصلنا بينما ظلت « سفرنامة » لناصر خسرو محفوظة وترجمها الى العربية الدكتور يحيى الخشاب سنة ١٩٤٥ .

وثمة مؤلف آخر هو ابن ميسر صاحب كتاب « أخبار مصر » تناول العصر الفاطمى وابهته وسخاء ما أخرجه .

وقــد ذكر فيمــا ذكر أنه رأى مجلدا من نحــو عشرين الف كراسة يحوى بيــان ما خرج من التحف والاثاث والثيــاب والذهب ولم يقطع المؤرخون ومنهم الدكتور زكى محمد حسن فيما اذا كان هــذا البيــان يمثــل سجل تحف العصر الفاطمى أو هو بيــان ما نهب من التحف فى سنوات الشــدة العظمى وما تفرق منهــا •

ومهما يكن من أمر فان شواهد التاريخ تشير الى أن ما تحتفظه جنبات المتحف الاسلامى بالقــاهرة ومتاحف العــالم كله من كنوز الفاطميين لا يمثل الا القدر اليسير الذى حفظه الزمن من هــذا العصر فقــد كان الفن فى هــذه العصور العربية الاسلامية فن حياة لا يختفى فى سراديب المقــابر كمــا تخفت فنون الفراعنــة فجاءتنا بعــد آلاف السنين طاوية الزمن محتفظا بمــا لها من بهــاء وجــلال •

كانت مصر ارضا خصيبة للفنــان الاسلامى وبخاصة منذ العصر الفاطمى فلئن كان العصر الطولونى ظل مشدودا الى فنون ســامرا فان الفاطميين وقــد اصبحوا اصحاب دولة وخــلافة كانوا أكثر انتمــاء الى المكان •• لمسوا فيه التجانس والوحــدة وهــذا الصمت الجغرافى الواضح الرحيب الذى يغــاير سمت بلاد المغرب التى قدموا منها •

وقبل هــذا كله راعتهم شوامخ حضارية فى تاريخ مصر الفرعونية هى من عبقرية هــذه البيئــة ومن فيض الوجدان المصرى ، فلا غرابة أن تأخذهم روح المكــان وأن يحتضنوا لاكثر من اعتبــار فنانيــه وصناعه ويمــدوا اليهم أســباب التشجيع وان تشهد القاهرة بعثــا فنيــا ينفث فى فنونهــا هــذا البهــاء الشعرى الاخاذ ••

ويتحرك وجدان النحت والتصوير فى نفس الفنــان فيفيض على الواح الخشب ومنحوتات الرخام وأوانى الخزف ، وقطع النسيج •

فى الافاريز الخشبية التى كانت تزين القصر الغــربى الفــاطمى نرى الانســان يأخذ مكانه فى أعمــال الفنــان القاهرى بعد أن كان

الفن تجريدا هندسيا ، نلمح صور الاشخاص وراء هـذه الخلفية من الزخارف ونشهد عراكهم فى ساحات الصيد واندماجهم فى مجالس الغنـاء والرقص .. مسرح من التنـاسق التشكيلى مزج العناصر الهندسية المجردة والعناصر التشخيصية مزجا موفقا واستطاع بخطوطه المحـددة أن يعبر عن الحـركة وان يبرز الكتلة النحتية ابرازا رائعا مع امتلاكه سر التحوير والتبسيط الذى يسقط العارض والتفاصيل من أجل تأكيد المعنى التشكيلى ... ومن هنـا تختفى تفصيلات ملامح الوجـوه فى هـذه الافاريز ولئن رد الرأى التاريخى هـذا الاسقاط الى التزام الفنـان تقاليـد لا يتخطاها والى الحرج فى تصوير وجه الانسـان ، الا ان هـذا الرأى تعارضه الحـاسة التشكيلية مجردة عن الاعتبارات الاثرية وترده الى نزول الفنان الفاطمى على مقتضيات التشكيل فهو فى هـذا النحت الخشبى قد جـرد وجه الانسـان كمـا جرد ملامح الحيوان والطير أيضا من أجل تحقيق التناسق بين الحشـد الزخرفى فى خلفية النحت وبين التبسيط المطلق فى الاشخاص والطيور والحيوان وبهـذا حفظ للعمـل الفنى وحدته وارتبـاطه عن طـريق المقـابلة بين أسلوبين فى التشكيل أسلوب النحت الزخرفى فى الخلفية وأسلوب التبسيط وابراز الاحجام فى المجموعات ، ويؤيد ذلك أن هذا الفنـان لم يتحرج من أن يصور وجوه الاشخاص على الاوانى الخزفية صريحة واضحة مؤكدة ، وأن يمثل الراقصات والعـازفين وتفصيلات الطيور والحيـوان .

فهو يحفظ التفـاصيل حيث تمليها الصورة التشكيلية ومقتضيات الجمـال وهو يجنح الى التبسيط استلهاما لهـذه المقتضيات ، واروع نمـاذج التبسيط فى النحت تلك التى تتمثل فى تمـاثيل الحيوان من البرونز فهى تبدو فى تحويرها التشكيلى وكأنهـا من انتـاج نحاتى الحيوان المعـاصرين .

وحين يعـالج الفنان الرخام يجنح الى اسلوب آخر فهو دائما

يمتلك سر الخامة ويدرك معطياتها وما تماثيل الاسود الفاطمية والملوكية الا نماذج دالة على هذه القدرة •

ولقد كان الاسد محورا من محاور الفن ، استهوى الشاعر العربى كما استهوى الفنان الاسلامى •

ويحدثنا ابن خلكان عن تمثال الاسد من الرخام الذى أمر الخليفة المتوكل باقامته عند مقياس الروضة ، كما يصف عبد الغنى النابلسى فى رحلته الحقيقية والمجاز تماثيل أسود قنطرة الخليج القاهرى التى ظلت رابضة فى مكانها حتى شوهها صائم الدهر المتصوف كما روى المقريزى فى خططه •

واذا كان الخشب والرخام مجال التعبير عن الوجدان النحتى للفنان الاسلامى ، فان الخزف والنسيج كانا من مسارح الوجدان التصويرى فيما احتوته النماذج التى وصلت الينا من روائع الالوان ومشاهد الناس والطيور والحيوان وهذه الزخارف التى تعايشها كانها حلم الفنان بفردوس قدسى تسبح فيه الكائنات •• ويبلغ الحس اللونى عند الفنان الفاطمى حد الاعجاز فى خزفه ذى البريق كما يبلغ الشكل كماله المعجز فى تلك الأعمال التى حفظت أسماء صانعيها وعكست أساليبهم فأسلوب الخزاف « مسلم » يختلف عن أسلوب « سعد » كما يختلف عن أسلوب « على البيطار » مما يدل على أن الشخصية الفردية وجدت ازدهارها فى ظل الشخصية الجماعية العامة للفن الاسلامى •

وظل الخزف يستعير من الصين براعاتها ، ومن الحوانات الاسطورية الاغريقية التى أضافتها الى مشاهد البيئة موضوعاته حتى جاء العصر المملوكى من فنانى الخزف أعطوا لهذا الفن خصائصه فى ذلك العصر مثل غيبى والتوريزى •

وكان أبو العز آخر الخزافين الذين شاعت شهرتهم فى العصر

المملوكى ورث عن أسلافه براعتهم وقدرتهم الفائقة على التنسيق الزخرفى وحسهم الهندسى الذى هجر التشخيص الى التجريد •

هؤلاء الفنانون وغيرهم جديرون بأن نستجلى شخصياتهم وخصائصهم من خلال هذا الخط الجماعى المديد للفن الاسلامى فى مصر •

ولقد عكف معهد أبحاث الفنون الاسلامية بجامعة ميتشجان منذ سنة ١٩٣٥ على الاعداد لمعجم بأسماء الفنانين المسلمين يسهم فى كتابته الاخصائيون فى العالم كله ويشمل أسماء المهندسين والخطاطين والمصورين والمذهبين والمجلدين والنساجين وصناع السجاد والتحف الزجاجية وبدأ نشر دراساته منذ سنة ١٩٣٨ •

وما أجدرنا بأن نفيد من هذه الجهود وغيرها وأن نضيف اليها لنزداد تعرفا وارتباطا بفنانى العصر الاسلامى •• ما بقى لنا من معالم حياتهم وما حفظه الزمن من اعمالهم وما نستطيع ابرازه من خصائصهم وأساليبهم •

هذه المتعة الفنية نراها أيضا فى أوانى النحاس منذ العصر الفاطمى حتى العصر المملوكى •• هى أيضا كانت من الصناعات الفنية الرائعة منذ الفراعنة تلقاها الفاطميون وابدعوا فيما نقشوا وزخرفوا حتى جعلوا منها مسرحا لفتنة الروح وتلقى عنهم المماليك هذا الفن فزادوه جلالا بهذه الأشكال من الأوانى والشمعدات والأباريق التى صبوا فيها وجدانهم النحتى وبقدرتهم الفائقة على تكفيت المعادن بالذهب والفضة حتى كان عصرهم العصر الذهبى لهذا الفن •

هى ادوات للاستعمال ولكنها أيضا لامتاع الرؤى وتحقيق الفتنة للنفوس ••

ذلك مسعى يتطلع الفنان العربى الى تحقيقه سواء رسم على

الورق أو نقش على المعادن أو نحت الاحجار أو زخرف النسيج ...
ولقد أدرك عبد القادر الجرجانى فى اسرار البلاغة هذا المعنى حين قال : « ان التصاوير التى يشكلها الحذاق بالتخطيط والنقش أو بالنحت والنقر تعجب وتخلب وتجعل النفس يغشاها ضرب من الفتنة » .

وجه آخر من وجوه العبقرية الاسلامية يتجلى فى النسيج ذلك الذى أبدعت مصر روائعه فى عصرها الفرعونى وتفننت الاسكندرية فيه فى عصرها الهلينستى ، وجاء الخلفاء العباسيون فلمسوا الحاجة الى استخدام هذه العبقرية الموروثة فى صناعة كسوة الكعبة وملابس التشريفة .

وجاء الفاطميون بتطلعاتهم الى البذخ وحياتهم الحافلة بالابهة والمسرات فازداد النسيج أهمية وأخذت دور الطراز مكانتها .

وكانت اعلام مواكب الخلفاء كما روى القلقشندى تحفل برسوم سباع من الديباج الاحمر والاصفر ، وكذلك كانت ثيابهم موشاة بالزخارف فأتاح ذلك لفنان القاهرة مجالات للتعبير عن حسه الجمالى ، وحفل النسيج بصور الاقاليم الأرض وجبالها وبحارها الى جانب الوحدات الهندسية .

لم يبق من هذا النسيج الكثير ولكن الرواة نقلوا الينا ملامح من روائعه وكان الشعر العربى أيضا مصدرا من مصادر اثبات ما طمس واختفى من معالم الفنون الاسلامية فالمتنبى تبهره الرسوم فى خيمة سيف الدولة :

وفوق حواشى كل ثوب موجه
من الدر سمط لم يثقبه ناظمه

ترى حـيوان الـبر مصطحبا بهـا
يحـارب ضـد ضـده ويسالمه

كمـا نحت الفنان الاسلامى الخشب والرخـام غانـه اودع حشوات العـاج الرقيقة همسة الفنى فى براعة تلقـاها عن اسـلافه فى هـذا المكان ، فلمصر فى فن العاج باع يرجع الى القـديم ، ولقـد كانت الاسكندرية مركـزا من مراكـز هـذا الفن الذى ابدع فيـه الفـاطميون وخلفوا لنا مجموعة من تحفه بلغت حد الروعة فى تكويناتها وزخارفهـا •

أما فن التذهيب وتصوير الكتب وزخرفتها وتصميم غلافاتها فجلها يرجع الى العصر المملوكى •• هو عصر شغف باللون اضـافة الى العمارة واحله فى الافاريز الخشبيـة مكان النحت عند الفاطميين وايداع تلك الزخرفة الذهبية النورانيـة لصفحات القرآن كمـا غمس مرقمـه فى ألوان جعلت رسومه تجيش بحرارة الحيـاة وتخلب الالبـاب نرى ذلك فى صفحتين من مخطوط الجزرى « كتاب فى معرفة الحيـل الهندسية » كمـا نراه فى كتب البيطرة والترياق وغيرها من كتب العلوم •

ومن هنـا كان لفنون ادوات الحيـاة مكانهـا ومكانتها وهى التى أوصلت الاحسـاس بالفن لدى الجماهير • كانت أصغر ادوات الحياة تحفل بقيم الفن ومن هنـا ازدهـر فن الخزف ، وفن الزجاج ، وفنون النسيج ، التى كانت مسرحا للوجـدان التصويرى فى الوانها ومناظرها التى جمعت عوالم عـدة •

ويكفى أن نسوق مثالا على ذلك من رحـلة ناصر خسرو واشاراته الى ازدهار الخزف الاسلامى وما بلغه من رقة وشفافيـة ومن استخدام الاوانى الخزفية فى محـلات التجـارة بالقـاهرة بديلا عن الورق فى العصر الحاضر ، فكان تجار البقالة والعطارة يضعون فى الاوانى الخزفية

الرقيقة ما يبيعونه وفى هذا الدليل على رقة ذوق ورفاهية فى الاستعمال .

مؤرخ آخر هو المقريزى أطنب فى وصف روائع التحف الفنية الزجاجية المموهة بالذهب وغير المموهة وأقداح البلور والصحون المموهة بالمينا .

وكان الخط العربى مسرحا للابداع التشكيلى ، ففى اللوحات الرخامية والحجرية للخط الكوفى تجمعت لمحات من الحياة وملامح وجوه وأشكال تكاد تفصح عن نفسها وراء التحرير الزخرفى للحروف فى أشكالها الآدمية والحيوانية المجردة والنباتية . هذا هو جانب من النحت الخفى فى الفن الاسلامى الى جانب المنحوتات الصريحة المجمعة لتماثيل الحيوان التى ابدع الفنان الاسلامى صياغتها .

ولم تكن الكتابة العربية مجرد أداة لنقل الأفكار والمعانى بل هى أوغلت فى التفنن وتنوع الابداع واجتمعت لها أسرار العبقرية العربية .

على أن عبقرية التصوير العربى الصريح تمثلت فى المنمنمات .. فمنذ دخلت صناعة الورق العالم الاسلامى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ظهر فن تزيين الكتب بالتصاوير وكان تصوير المخطوطات من براعات الفنان الاسلامى بل كانت الصورة مكملا للكلمة ... واحتوت الكتب بدائع الفنون التشكيلية من الخط والنقش والتذهيب والتلوين .

وفى المخطوطات القديمة التى حفظها الزمن كنوز تدل على حضارة وحس رهيف جعل من الكتاب فنا رائعا بل محتوى لفنون عدة .

ان الكتب العربية تجسيد للابداع التشكيلى فى اخراجها وفيما حوت منمنمات تعبر بصدق عن الحضارة العربية والحس العربى .

ولقد كان لازدهار المدرسة البغدادية فى تصوير الكتب أثره فى اعطاء فن التصوير العربى مشخصاته المميزة وابراز قدرة العبقرية العربية الاسلامية على التمثل واحتواء عناصر وتأثيرات مختلفة وصهرها جميعا من أجل ابداع نمطها الخاص .

وان يحيى الواسطى مصور مقامات الحريرى لنموذج رائع للعبقرية العربية التى طوفت واستعارت ثم صاغت براعة فى الوسائل وقدرة التعبير واضفت على الفن هذه الروح الاسلامية والسمات العربية التى تميز بها التصوير فى بغداد .

ولم تكن مقامات الواسطى وحدها هى نموذج هذا التصوير العربى الرائع بل ان صفحات كليلة ودمنة والاغانى والمقامات الاخرى قد حفلت بروائع فيها صدق التعبير وشحنة الحياة وتصوير الاشياء وفق المنظور الروحى للفنان الاسلامى والقدرة على ابراز التكامل القائم بين الانسان ومجتمعه فى ذلك العصر .

ولقد جاء ازدهار فنون الكتاب تصويرا وتنسيقا وتذهيبا مصاحبا للنهضة العامة التى أتاحت للشعراء والكتاب والفلاسفة تلك الحرية الفكرية واقترن ذلك بحركة الترجمة والاقتباس من علوم وفنون الحضارات السابقة ، وكانت صور المخطوطات انطلاقة من التجريد الى التشخيص فى الفن العربى الاسلامى بأسلوب تكامل أداؤه وانتهى على عربية أصيلة .

ولم يقتصر التصوير العربى الاسلامى على مخطوطات بغداد بل ان مخطوطات القاهرة ودمشق وغيرها من الحوافر العربية حفلت بروائع من هذا الفن ، وتجلى الاحتفاء بالصورة فى امتداد رقعتها الى كتب العلم .

وما كتب « البيطرة » و « الحيل » للجزرى والترياق ومخطوطة

ديسقوريدس فى الاعشاب الا دلائل على العناية بهـذا الفن واقتران النهضة العلمية والادبيـة بنهضة فى الفنـون .

وكان ارتباط الفن بالحيـاة فى المجتمع العـربى ماثلا فى أثاره الحضـارية من العمـارة الشاهقة حتى التحف والأدوات التى ذكـر الرحـالة فى كتب اسفارهم عنهـا ما يفوق الحصر غير أن سـنوات الشـدة العظمى والنكبات التى حلت بالوطن العربى اتت على الكثـير منهـا فقـد كان الفن الاسلامى فى حيـاة لا يتخفى فى سراديب المقابر كمـا تخفت فنـون الفراعنة فجاءتنا بعد آلاف السنين طاوية الزمن محتفظة بمـا لهـا من جـلال وبهاء .

ويدعونا هـذا الى الحديث ببعض الاستفاضة عن المنمنمات فى الفن العربى الاسلامى وما كان لهـا مكانة يدل على تاريخهـا البعيد هـذا المخطوط من كتاب الاغانى لأبى الفرج الاصفهانى ، الذى يرجع الى القرن السابع الهجرى أى القرن الثالث عشر الميلادى . ولئن توزعت نسخ هـذا المخطوط بين كوبنهاجن واسطنبول الا ان دار الكتب المصرية ظفرت ببعض اجزائه ومن بينها الجزء الثانى الذى تتصـدر احـدى منمنماته فصـلا من فصوله يتناول « ذكرى عدى بن زيد ونسبه وقصة مقتـله » .

وعـدى شاعر من شعراء الجاهلية تزوج هـند بنت النعمـان ثم اغتـاله النعمـان فحزنت هند وترهبت وحبست نفسهـا فى دير بظاهر الحيرة حتى ماتت .

وقـد استوقف المصور هـذا الجانب من القصة فأراد أن يصور هـند بنت النعمـان ولهـا فى الادب العربى مكانة من الحب والتقدير — واختار مشهدا من مشـاهد الدير يمثل مرحا بريئا اشاعه غنـاء وموسيقى ترددهما سرب من الفتيات احطن بهنـد فى ديرها فى يوم عيـد .

وكثيرا ما نوه أبو الفـرج صاحب الاغانى بفتيـات الاديرة فى كتـابه ، ومن ذلك قـوله :

خـرجت يوم عيدهـا   فى ثيـبـات الـرواهب
فتنـت باختيـالهـا   كـل جـاء وذاهـب
لشقـائى رايتهـا   يـوم ديـر الثعـالب
تتهـادى بنسـوة   كـاعب فى كـواعـب

نموذج آخر من المنمنمات تراه فى مقامات الحـريرى التى تعد تصـاويرها من أوضح اثار فن التصوير العربى ، غير أنهـا تدور جميعا حول محور أسـاسى هو التعبـير عن قصة أبى زيد السروجى وكفاحه مع الحيـاة ، وهى تنحصر فى احـداث حيـاته الخارجية وتعكف على تصوير اجواء الحيـاة الشعبية التى عاش فيهـا .

وعلى الرغم من أن الحب كان محورا أساسيـا من محاور الادب العربى فان التعبير عنه قلمـا تبدى فى فنون العرب ولم يحفظ لنـا التـاريخ بعـد تصاوير المقامات وهى تصاوير احـداث ومنـاظر الا مخطوطين عالجـا فى صورهما قصص الحب أحدهمـا بقـايا مخطوط ينسبه بعض الباحثين الى المشرق العربى وغالبـا مصر ، والاخر مخطوط ينتسب الى المغرب العربى قد يكون مصدره مراكش أو أسبانيا وزمانه القرن الثالث عشر .

ويروى هـذا المخطوط قصة حب تاجر دمشقى يدعى بيـاض كان مرهف الحس ومولعـا بالشعر وقد وقع فى غرام فتـاة جميلة تدعى رياض وصيفـة احـدى النبيـلات ، وتروى القصـة أحداث هـذا الحب الافلاطونى واحزانه ورسـائل الغرام التى كان يبعثها بيـاض الى حبيبته ومعاناة كلمنهما فى سبيل هـذا الحب .

ومن أرق تصاوير هـذه المخطوطة تلك التصويرة التى تصور بيـاض يعزف على عوده فى قصر النبيـلة وحولهـا وصيفات الشرف وقد أبدع الفنـان فى تصوير مختلف التعبيرات المرتسمة على الوجوه كمـا تفنن فى توجيه حركاتهـا مما أضفى على اللوحة حيـاة •• وعلى خـلاف التصوير فى المشرق العربى فان تصاوير هـذه المخطوطة تصور أجواء الطبقـة الراقيـة وكان من شأن ذلك أن أضفى على تكويناتها الرصانة والهـدوء على خـلاف ما يشغل تصـاوير المقـامات من حركة وصخب هى انعكاس للحيـاة الشعبية التى تعـبر عنهـا وخلافا لصور المقـامات ايضا فان العنـاصر المعمارية تنتحى فى اللوحة جانبا ولا تحتل فيهـا الصدارة وانمـا تترك صدارة اللوحـة للاشخاص والاشجار الذين تظلهم ويعبر تشكيلها عن حس زخـرفى مرهف للمصور المجهـول الذى أضفى الحيـاة على حديث بيـاض ورياض فى ذلك المخطوط النـادر الذى تحتويه مكتبـة الفاتيكان •

ولم يقتصر الفن على صوره وأشكاله واستخداماته فى مجال الحياة بل انعكست مظاهره على ذوق المجتمع وسلوكه ندرك ذلك ممـا حفظته الكتب عن عز دمشق وأبهـة بغداد وروعة مراكش وبهـاء تونس وما كانت تحفـل به القـاهرة من مواكب وأعيـاد استخدمت فيهـا كل عبقريتهـا فى التفنين •

وبعـد الم تحظى القاهرة منـذ ستة قرون بمـا لم تحظ بـه باريس الا منـذ سنوات قليـلة حين أمر الحكام بطلاء مبانيها باللون الابيض فبدت وضاءة تزينهـا الالوان المتألقـة فى أسواق النسـيج والنحـاس ومتاجر الفاكهة والزهور •

ويصف الحسن بن محمد الوزان المعروف باسم أبو الافريقى بعد طوافه بأفريقيـا العربيـة تنظيمات الصناع الفنيين وكيف كان الاحتفال يجرى حين ينتج واحـد من الفنانين الحرفيين عمـلا يتسم بالابتكار

فتمضى طوائفهم فى مواكب تسبقهـا الموسيقى ويتقدمهـا الفنـان المبتكر مرتديا ازياء من القمـاش الفاخر ويطوف به بمحترفات الحى معلنـا عن ابتكاره ويقـدم له زملاؤه النقوط احتفـالا بظهور عمل فنى جـديد .

وهـذه الاشارات وغيرهـا فى كتب الاسفار والرحلات تنبىء عن مدى اهتمـام المجتمع بابداعات الفنون وطرائف التحف وتـدل على أن ارتبـاط الفن بالحيـاة جعـله يحتل مكانا عزيزا فيهـا .

ولقـد اختص بعض المؤرخين رجال الفنون بجـانب من كتب الطبقات ، كمـا اختصوا علماء الطب والكيمياء والهندسة ، غير أنـه لم يبلغـا من طبقات المصورين سوى اسم كتاب واحد « ضوء النبراس وانس الجـلاس فى اخبار المزوقين من النـاس » الذى ذكره المقريزى فى خططه ولم يهمل كثير من المؤرخين تراجم الفنـانين وفيما وضعوه من كتب التراجم العـامة . ومن هـذه الكتب جمع تيمور باشـا اخبار عدد من نوابغ المصورين والنحاتين والخزافين يتضح منها مدى ما كان للفنـان فى المجتمع العربى من مكانة وحظوة .

ألم يكن ابن ادريس القرافى اماما وفقيهـا بارعا فى صـناعة التمـاثيل المتحـركة وكان ابن الرزاز الجزرى مؤلف كتاب « الحيل الجامع بين العـلم والعمل » من أهل الفن والعـلم معا جمع موهبة الابتكار العلمى والابداع الفنى مثل ليوناردو فى عصر النهضة الايطالية وكان للخطاطين فى المجتمع العربى مكانة عظيمة ومن الولاة والحكام من مارس هـذا الفن ببراعـة . ولقـد كان من الفضـائل التى تذكر المعتصم أنه خطـاط .

وعرفت العواصم العربية المساجلات الفنية على نحو ما كان يجرى بين الفنـانين فى عصر النهضة الايطالية ، وتكفينا الاشـارة الى قصة المصور ابن عزيز الذى استدعى من العراق الى مصر فى عهـد الوزير

« أبو الحسن البازورى » لمناقشة القصير وكان من نوابـغ مصورى العصر الفاطمى ولقـد كان تنافسهما دليـلا على ادراك فنـانى هـذا العصر وامتلاكهم اسرار الاداء كمـا كشف عن اهتمـام الحـكام بالفنـون ورعايتهم لهـا ٠

ولقـد عرفت المجتمعات العربيـة رعاة الفنون من الولاة والوزراء الذين جادوا على أهل الفن بسخاء وحققوا لهم فى حياتهم الاستقرار والمنـاخ الملائم للابـداع ٠

على أنظهور مجتمع الطبقة الوسطى من التجار بخاصة أتـاح للفنـون مزيدا من الازدهار وزادهـا ارتباطا بواقع الحياة اليوميـة وفنـا فى تجميل الحياة كهدف من اهـداف الفن الاسـلامى الذى كانت زخارفه ونقوشه انعكاسا للغة التأسيسية فى مقـاطع تقصر أو تطول ولكنها تفيض بالاجلال وبالاحساس بالحمد لله والرضـا بنعم الحيـاة ٠

وظلت هـذه الفنون تجـدد فى عطائهـا الى ان اذنت جذوتهـا بأفـول ٠

خاتمــة

وبعـد فان اتجاهى الى هـذا الجانب من جوانب الحياة الثقافية فى ظل الحضارة العربية الاسلامية ودعوتى الى توجيـه الاهتمـام اليه انمـا مبعثه أن معظم الدراسات الاثرية العربية المعاصرة على ايدى الكاتب العربى تمضى فى اتجاه يتسم غالبا اما بالدراسة التاريخية السطحية للعصور الفنية ، واما بالتسجيل الوصفى للاثر ٠

والاعمـال التى تعمقت فى التراث الفنى الاثرى قليـلة نادرة ٠٠ كمـا أن ادخال جانب الحيـاة الفنيـة فى كتابات المؤرخين أمر قليـل

الحديث رغم أن الابداع الفنى فى العصور العربية الاسلامية ظاهـرة اجتماعية لا تنفصل عن كل مظاهر الحيـاة بل عن العقيدة التى صاغت للامة العربيـة حضارتهـا .

من أجل هـذا أصبح على الاثريين والمؤرخين النظر الى الابداع الفنى فى المجتمعات الاسلامية على أنه نتـاج مجتمع له قيمـه الدينية والتربوية ومقوماته الاقتصادية والاجتماعية .

وان الفن كظاهرة اجتماعية هو نتـاج كل هـذه القيم والمقومات .

لذلك فان أى تصور صحيح للفن والحضـارة الاسلامية ينبغى أن يقوم على تدقيق الجزئيات وضم اشتاتهـا فى كل متكامل وعلى دراسات واسعة لنهج الحيـاة واسلوبها وعلى جـلاء للتأثيرات المختلفة ووضوح للمداخل الدقيقـة لتطور المجتمع الاسلامى وعقائده وتركيبه ومؤسساته الحضـارية التى أسهمت فى تكوين شخصيته الفنيـة .

وكذلك علاقة نهضة العلوم والهندسة والكيمياء فى تدعيم الصناعات الفنيـة ، واثر حركة التجارة ، والمسالك ، والطرق المختلفـة التى كانت تنقل مؤثرات كثيرة الى هـذه المجتمعـات .

واذا كانت هـذه المحاضرة قـد تناولت بعض الملامح العـامة من الحياة الفنية فان هـذا المجال متسعا لبحث البـاحثين ولتوجيـه الدراسات الابداعية فى فى الفنون الى ميدان مازال مفتقرا الى الرؤية العربية والحس العربى والفكر العربى فنحن أقدر على اكتشاف كنوزنا من الاخرين كما أننـا أقدر على تفسيرهـا من منظور مرتبط بجذورها واع بأعماقهـا .